المرجعيات الثقافية في الوعي النقدي لدى العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين

أ.م.د علي عبد الحسين حداد
كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة ميسان

مازن عبد الزهرة رزيج
كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة ميسان

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى كشف المرجعيات الثقافية التي شكلت الخطاب النقدي في القرنين الثالث والرابع الهجريين في البيئة العربية، فضلاً عن كشف الأنماط التي ظهرت عليها هذه المرجعيات المؤثرة في تحول النقد من الطبيعة الشفاهية المعتمدة على الموروث الادبي والاجتماعي السائد في البيئة العربية قبل القرنين الثالث والرابع الهجريين، الى الطبيعة الكتابية المستفيدة من ظهور التأليف في العلوم والمعارف لدى العرب وانتشار الكتابة وترجمة معارف الامم الاخرى الى العربية.

وهذا البحث يرصد انتقال النقد من الفطرية والذوقية والاعتماد على الانطباع الذاتي الذي تمليه الصدف والذي يخلو من المنهجية والموضوعية الى حد ما، إلى نقد له منهج علمي وموضوعي، كما أن له أصولا وضوابط مدرسية أنتجت نظرية نقدية عربية واضحة الأسس.

Cultural Referentialities of Arab literary criticism in the third and fourth centuries AH

Abstract

This research aims to determine the Arab cultural references, which formed the critical discourse in the third and fourth centuries AH in the Arab environment. In addition to revealing, the patterns that emerged in these references affecting transformation of criticism from orality nature. On the literary and social heritage prevailing in the Arab environment before the third and fourth centuries AH to the literacy nature that benefited from the emergence of authorship in the sciences, and knowledge among the Arabs the spread of writing, and the translation of other nations' knowledge into Arabic..

المقدمة

يختص هذا البحث بتقصي انماط المرجعيات الثقافية – التي اسهمت في تأسيس خطاب النقد لدى العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين– بوصفها روافد معرفية رئيسة كان لها الاثر البالغ في تحول النقد من طوره الشفاهي الذي أعتمد على الموروث الادبي والاجتماعي السائد في البيئة العربية قبل الحقبة المذكورة , الى طوره الكتابي الذي استفاد من ظهور التأليف في العلوم والمعارف لدى العرب وانتشار الكتابة وترجمة معارف الأمم الأخرى الى العربية , أذ ان التحول المذكور قد خطى بالنقد خطوات فاعلة نقلت النقد من الفطرية والذوقة والاعتماد على الانطباع الذاتي الذي تمليه الصدف والذي يخلو من المنهجية والموضوعية الى حد ما وصيرته إلى نقد ممنهج يعتمد على النزعة العلمية والموضوعية ويتبنى أصولاً وضوابط مدرسية أسهمت في وضوح نظرية النقد لدى العرب بفعل

المرجعيات الثقافية المتنوعة سواءً أكانت تراثية أم دينية أم لغوية أم بلاغية أم فلسفية , والتي بدأت تنتج ذوقاً وطرائق جديدة في تقويم النصوص الادبية واصدار الاحكام بشأنها وبشأن الشعراء , ولأجل معرفة الروافد الرئيسة التي اسهمت في إحداث التحول من المرحلة الشفاهية إلى الكتابية في النقد الادبي لدى العرب وخصوصاً في الحقبة المذكورة , ورصد البواعث الإساسية التي دفعت إلى هذا التحول والتي كانت على رأسها استفادة النقد من الابعاد الثقافية التي وضح أثرها الفاعل في خطاب النقد وتوجيه مساراته وإغنائه بالحس العلمي والعقلي , لذا ألمينا البحث عن طبيعة هذه الروافد الفاعلة واستقراء أصالة النقد الأدبي لدى العرب من خلال معرفة فاعليها الأساسيين الذين نهلوا منها وانتجوها بخطاب يمثل الكون الثقافي في الحقبة المذكورة . وقد اشتمل هذا البحث المتواضع على خمسة مباحث , تناول أولها أثر المرجعية اللغوية في تاريخ النقد الأدبي لدى العرب وإسهامها في انطباع النقد بالجانب العلمي والمدرسي , واختص المبحث الثاني باستقراء روافد التأثير الديني في خطاب النقد ومدى تداخله في توجيه وعي النقد والاستفادة من منقولة في الاستدلال والمحاججة , أما المبحث الثالث فقد ترصد أثر الموروث الثقافي والأدبي في وسم وعي النقد بالأطوار الثقافية التي سبقت الحقبة التي تهتم بها دراسة البحث ومدى استفادته في تطوير القضايا التي استقاها من التراث لتكون أصولاً رئيسة في إطار النقد المدرسي ونظرية النقد , لكون المؤثر البلاغي من المؤثرات الفاعلة في وعي النقد وفي اتسامه بالنزعة العلمية واختلاطه الشديد بميدان النقد لذا اهتم المبحث الرابع بهذه المرجعية والإشارة إلى أثرها , أما المبحث الخامس فقد اختص باستقراء تأثيرات النقد الفلسفي في وعي النقد الادبي لدى العرب من خلال القضايا التي اسهم في انتاجها وفي تأثرها على المنظور المنهجي لدى بعض النقاد والمتقدمين في هذه الحقبة ولا يدعي الباحث أنه قد أحاط بكل ما يتصل بميدان دراسته , أو أن له السبق من دون غيره في هذا الجانب من دراسة , وإنما حاول تسليط الضوء على المرجعيات الثقافية التي اسهمت في انتقال النقد من طوره الشفاهي الى طوره الكتابي , فإن وفق في ذلك فلكه الحمد وإن لم يوفق فسبحان الذي تفرد بالكمال وحده وهو العليم الخبير

من الملامح البارزة التي أحدثتها الحقبة الكتابية في النقد الأدبي لدى العرب بروز أثر المرجعيات الثقافية في تكوين الرؤية النقدية وخطابها ، بما أكسب هذه الرؤية عمقاً نظرياً في رسم الأصول الفنية التي اعتمدتها نظرية النقد , وتوسعاً في وضع المصطلحات المقترنة بها وحدّها بحدود مفاهيمية ثابتة ، بوصفها قواعد مستقرة لدى النقاد في تقويم النصوص الأدبية وركائز راسخة في إطار النقد المدرسي ، ولم يبلغ النقد الكتابي هذا المستوى الناضج ليس بالتحول من الطور الشفاهي إلى الطور المدون والمقروء فحسب ، وإنما عن طريق الصلة الوثيقة ما بين ميدان النقد والتأثيرات الثقافية المحيطة به ، سواء أكانت هذه التأثيرات متحصلة عن طريق التحول الثقافي والحضاري الذي شهادته البيئة العربية في حكم بني العباس ؛ بسبب الانفتاح على الأمم الأخرى والاستفادة من ثقافاتها وعلومها ومعارفها () والانتقال إلى الحياة المدنية والابتعاد عن الثقافة البدوية , أم كان ذلك متحصلاً من خلال توظيف النقاد

لخزينهم الثقافي ، أم غلبة ذلك على رؤيتهم النقدية بما أسبغ على هذه الرؤية بالحس المنهجي والعلمي والموضوعي والميل إلى تقعيد النقد وتأصيله تأصيلاً معرفياً ذي نزعه مدرسية ، وإن كان هذا التأصيل لا يخلو من التذوق النقدي المحض المتأثر بجمال النصوص المقومة من خلال الرؤية المدرسية ، وعد تقاطعه لكلياً مع الموروث النقدي الشفاهي الذي أشرنا إليه في مواضع سابقه من البحث ، لكونه مصدرا مهما من المصادر التي اعتمدها النقد الكتابي , إذ كان التنوع الثقافي سمة بارزة في خطاب النقد المدون وملمحاً شخصياً في شخصية الناقد الفذ في هذه الحقبة ، إذ لا يمكن أن نتخطى في دراستنا لمعالم تحول النقد من الشفاهية إلى الكتابية من دون أن نقرن ذلك بالظاهرة الثقافية وتحولاتها ، وفي ذلك يقول مبروك دريد : " بناء على ما تقدم في بسط علاقة النص الأدبي بالثقافة يمكن القول بأن : الأدب هو مجموع المدونة المتداولة للنصوص هو تمثيل خطابي للثقافة .() , إن اكتمال تقعيد علوم العربية نحواً وصرفا وبلاغة وعروضاً وغيرها من الدراسات المتصلة بالجانب اللغوي والصوتي ، فضلاً عن ظهور التأليف والتأصيل في علوم أخرى كعلوم القرآن والحديث والفقه والفلسفة ، فضلاً عن تنوع الخزين الثقافي للناقد من حيث كونه متسعاً في التأليف في أكثر من ميدان معرفي ، قد كان ظاهرة مخصوصة لنبوغ الفكر النقدي ونقطة مهمة لدراسة المصادر الثقافية التي رفدت قراءة النقد ، والهيمنة الثقافية لهذا الخزين في رؤيته ، من هذا يمكن أن نحدد أبرز المرجعيات التي رُصد أثرها في تشكيل خطاب الناقد في الحقبة الكتابية على الشكل الآتي :

أولا: الموروث اللغوي:

لقد تواصل الاهتمام بالشعر في العصور الإسلامية المختلفة، وكانت العلوم الإسلامية الناشئة تستغله من الوجهة التي تناسب موضوع بحثها، ولعل أشهر من اهتم به طبقات اللغويون والنحاة الأوائل، فقد شدوا الرحال إلى مختلف القبائل يروون عنها الشاهد والمثل، ويقيدون ذلك في نطاق ما يسمى في تاريخ العلوم اللغوية بحركة الجمع، ولقد أدى اهتمام هذه الطائفة بالشعر في وقت مبكر إلى جملة من النتائج لها التي كان لها الأثر البالغ في تاريخ البلاغة والنقد عند العرب.

ولعل من أهم تلك النتائج الصلة الوثيقة التي أقاموها بين النشاط اللغوي وبين العمل النقدي بوصفهم أول من شارك مشاركة جدية – نسبيا – في إقرار جملة من المقاييس التي يقوم عليها ، ولا نستبعد أن يكون الطابع اللغوي الذي أصبح سمة من سمات النقد العربي البارزة أتاه من هذه المرحلة – طيلة القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري – إذ كان اللغويون ينتصبون حكاما على الشعر والشعراء ، ويأخذونهم بمقاييسهم المتصلبة ، مثلما نلحظ ذلك لدى أبي عمرو بن العلاء وابن الأعرابي والأصمعي فقد كانا طرفاً هاماً في ما جدَّ من صراع بين القدماء والمحدثين ، ولقد تولوا الوقوف في وجه تيارات التجديد الوليدة في ذلك الوقت ، ودافعوا عن الذوق العربي القديم والصيغة الشعرية ، وأقروا المبادئ التي تقوم عليها " فحولة الشعراء " ليكون للشاعر على غيره " مزية كمزية الفحل على الحِقاق "، كما ذهب الى ذلك الاصمعي () وقد بلغ تأثير المرجعية اللغوية في مسار النقد وتقويم الادب حداً

بالغاً مما جعل بعض النقاد منذ زمن مبكراً يعد ذلك خطراً في تحول ميداً النقد من وجهته الذوقية الى حقل من حقول التطبيقات المدرسية اللغوية وفي ذلك يقول الجاحظ : " ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أرَ غاية رواة الأشعار إلا كلَّ شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولولا أن أكون عيّابا – ثم للعلماء خاصة – لصورت لكَ في هذا الكتاب بعضَ ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة ".() وعلى الرغم من كل ذلك فإنهم استفادوا من حركتهم استفادة كبيرة ، وأسسوا على موقفهم كثيرا من آرائهم في قضايا الشعر والبلاغة().

فإذا ما رجعنا إلى كتب الأدباء وشروحهم الأدباء لوقفنا على مذهب أهل اللغة والنحو التي كانت منصبة على توضيح الألفاظ اللغوية , وكل ما يتصل بها من قواعد نحوية وبيانية , ويكفي بأن نستشهد بالناقد و الأديب البحتري , وما أبداه من ملاحظة نقدية , حين سُئل , عن مسلم بن الوليد وأبي نواس أيهما أشعر ؟ , فقال : أبو نواس , فقيل له إن أبا العباس ثعلبا لم يوافقك على هذا , فقال : " ليس هذا من شأن ثعلب وذويه – يعني أصحاب اللغة – من المتعاطين لعلم الشعر دون عمَله , وإنما يعلم ذلك من دُفع في مسلك طريق الشعر إلى مضايقه , وانتهى إلى ضروراته "()

وهذا يدل على اعتماد البحتري في حكمة على ثعلب وهو من أصحاب اللغة على الجانب اللغوي , وليس من جانب المعاني الدقيقة التي يُسأل عنها , وغاية ما عند أهل اللغة و أصحاب الاتجاه اللغوي , أنهم يذكرون الإعراب , وبيان المعنى من الرؤية اللغوية ,على عكس رؤية الشاعر وهو ينظم النص الشعري , فيختار الألفاظ للمعاني مدققاً فيها, مصوراً ببيئته , مبرزاً عواطفه الفردية أو القبلية , لأن العرب كانت تنظر إلى الشعر إذا اجتمعت له تلك الأوصاف نظرة الإعجاب به , وبقائله , وما نقص فيه شيء من ذلك نقص تقديره وتقدير قائله , وما كان للشاعر أن يمعن النظر في بيان كلمة لغوية , ولا من أجل إيراد إعراب , بل مراد شعره ذلك الإحساس والشعور الذي ينبع من ذاته , ولا شك في ذلك فإن غايته هو التأثير في نفسه والمتلقي معاً()

لقد فرض اللغويون سلطانهم على الشعر والشعراء ، وأبدوا ملاحظاتهم على الشعراء ، وأحصوا هفواتهم في استعمال الألفاظ وضبطها وإيثارهم إياها دون غيرها ، مستعينين في ذلك بالأصول المقررة في اللغة والنحو من ، منبهين على مخالفة بعض الشعراء لنهج العرب في كلامهم ، وبذلك أصبح النقد اللغوي أول ما عرفته العربية من النقد العلمي القائم على التعليل وذكر الأسباب ، وبذلك لم يعد النقد " مجرد خطرات أو انطباعات شخصية ، وإنما أصبحت تتدخل فيه أطراف من الثقافات اللغوية والنحوية وغيرها "() فنجد ابن أبي إسحاق يتتبع سقطات الفرزدق ويخطئه ، عندما سمع قوله :

وغضُّ زمانٍ يا ابن مروان لم يدعُ * من المالِ إلا مُسْحتا ومُجلَفُ

فقال له ابن إسحاق : على أي شيء ترفع " مجلف " ؟ فقال الفرزدق : على ما يسوؤك وينوؤك ، عليَّ أن أقول وعليكم أن تحتجوا "() " ولا ريب في أن تلك الأخطاء تعكر على المتلقي صفاء الجو الشعري الذي يحيط بالقصيدة لمخالفتها ما ألقوه ، وخروجها عما عرفوه ، وتبليل أفكارهم نحو ما ألفوا وعرفوا "() والظاهر أن الاهتمام بقواعد النحو لم يقتصر على النحويين واللغويين فقط ، وإنما خاض فيه عامة الناس ، فالجاحظ يحدثنا عن أحد البخلاء أنه قال لغلامه : " هاتِ الطعام و اغلق الباب ، ، فقال الغلام : هذا خطأ ، بل اغلق الباب وأتِ بالطعام "() ففي عبارة الغلام نقد يتصل بالنحو وبالمعنى ، فقد عطف البخيل اسم فعل أمر " هاتِ " على فعل أمر " اغلق " وهذا غير جائز ؛ لأن العطف يكون بما يماثله ، وتصحيح الغلام أنه عطف فعل أمر " اغلقْ " على فعل أمر آخر " وأتِ ".

لقد أحدث اللغويون والرواة أثراً هاماً في إظهار القضايا والأفكار النقدية الأولى من خلال استنباطهم لقواعدهم ومبادئهم اللغوية من النصوص الأدبية ، وإذا كان الهم الأول لأولئك اللغويين والرواة هو : " رواية النصوص الشعرية والنثرية ، واستنباط القواعد اللغوية منها ، فإنهم كانوا يعرضون لبعض الجوانب الأسلوبية والتعبيرية في هذه النصوص "() لأن مجرد استخلاص قاعدة لغوية من نص ما يقتضي تحليل البناء اللغوي لهذا النص ، وتناول الجوانب الأسلوبية والأدبية فيه.

وخلاصة ما جاء في النقد اللغوي التطبيقي في التراث العربي أنه قد غلب عليه الإحصاء وشاعت فيه ضوابط التقصي والحصر ، كما أخضع النقاد القدماء النص الذي ينقدونه لسلطة النموذج والذي يتمثل في أشعار المتقدمين، واعتبروا كل ما خرج عنه مرفوضا بسبب مخالفته التقليد الشعري المتعارف عليه , والذي يؤكد أثر هذا النمط من المرجعيات في خطاب النقد الجهد الكبير الذي قدمه الاستاذ الدكتور نعمة رحيم العزاوي في كتابة الشهير (النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري) الذي ترصد فيه أثر المرجعية اللغوية في تأسيس نظرية النقد لدى العرب على مستوى ما تبناه النقاد من أصول لغوية في تأسيس رؤاهم وأحكامهم() , أو في ظهور النزعة النقدية لدى النحات واللغويون بشكلها التطبيقي الذي نجم بسبب تذوقهم للنصوص الادبية والذي جعل أحكامهم مشتركة ما بين الرؤية المدرسية القواعدية وبين تذوقهم الادبي للنصوص المذكورة()

ثانيا: الموروث الديني:

من العوامل التي أثرت في تطور النقد الأدبي وتدعيم قواعده المدرسية الكتابية القرآن الكريم والدراسات التي قامت حوله ، فقد كان لها أثر مباشر وغير مباشر ، أما الأثر المباشر فبفضل جهود العلماء الذين تعرضوا لأسلوب القرآن وبيان جوانبه البيانية ، محاولين إثبات إعجازه البياني مقارنة بالشعر العربي ، وخصائص البيان العربي بصفة عامة ، واستخدموا في ذلك الوسائل التي استخدمها نقاد الشعر ، بل إن بعض الدراسات القرآنية في القرن الثالث

الهجري قد استخدمت من المصطلحات البيانية ما لم يكن شائعا حتى ذلك الوقت في دراسات نقد الشعر مثل كتاب " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة ، واختلطت مقاييس النقد بالدراسات القرآنية ، فاستخدم علماء الإعجاز مصطلحات البديع وأبوابه في كشف بديع أسلوب القرآن للتوصل إلى إعجازه ، ومن هنا أثر القرآن في مناهج النقاد ، ودفعهم إلى بيان أوجه الإعجاز ، فأقبلوا على إثبات إعجازه ، وسمو بيانه على الشعر العربي ، وعقدوا لذلك المقارنات كما فعل " الباقلاني " الذي عاب تحكيم البديع في بيان القرآن() , وأثبت " خروج القرآن عن سائر كلام العرب "() ، وأما عن الأثر غير المباشر فقد جاء عن طريق ترقيق القرآن لأذواق النقاد بما جرى به أسلوبه من الصياغة الرائقة والصور الجميلة ذات التشبيهات والاستعارات الرائعة ، ما جعل العلماء يستشهدون بصياغته وتشبيهاته على كل جيل ، وصارت شواهد القرآن في مقدمة الشواهد الأدبية في كتب البلاغة والنقد().

والحق أن القرآن الكريم " كان له أبلغ الأثر في نمو الأذواق وتطورها في هذا العصر ، ودفعها إلى الإحساس بجمال العبارة وروعة التصوير ولطف التناول فيما يعرض لها من فنون الأدب ، وعلى ذلك ظهرت مجموعة من الدراسات القرآنية في تلك المرحلة تعد من صميم النقد ، وذلك لأنها كانت تحاول فهم النص والتعرف ظواهر الاستعمال اللغوي والتركيبي والإشارة إلى ما فيه من وجوه الإعجاز , ومثل هذه الدراسات القرآنية قد ساعدت على تأصيل النقد الأدبي المدرسي في هذا الطور من أطوار تكوينه ، وخطت به خطوات فسيحات"()

ويشير ابن النديم " ت 385 هـ " في الفهرست إلى ثروة كبيرة من الدراسات القرآنية منها : " مجاز القرآن " لأبي عبيدة " ت 209 هـ " وكتاب معاني القرآن للفراء " ت 207 هـ " وكتاب مشكل القرآن لابن قتيبة ، وغيرها من الدراسات القرآنية ، وهذه الكتب وأشباهها تعد في صميم المفهوم النقدي ، بوصفها تحاول فهم النص والتعرف على ظواهر الاستعمال اللغوي والتركيبي فيه ، والإشارة إلى ما فيه من وجوه المجاز ، فقد اهتمت هذه الكتب بالبحث في ظواهر اللغة وفقهها وطرق الأداء ونظام الجملة العربية في إعرابها وتركيبها ، وما في الكلام العربي عامة من فنون التصوير() وكان لظهور الفرق والجماعات التي تشكك في الإسلام سببا في ظهور مفكري الإسلام للرجوع إلى النص القرآني ودراسته دراسة تقوم على الدليل العقلي والحجة الدامغة ، و كان متكلمو المعتزلة وأصحاب الفرق الإسلامية هم المهيئون تاريخيا للقيام بهذا الدور والدفاع عن الإسلام دفاعا لم تعد تكفي فيه حرارة الإيمان فحسب .

وقد أستفاد كل من النقد الأدبي والبلاغة من ذلك فائدة كبرى ، وكانت بيئة المعتزلة إحدى البيئات الرئيسة التي ينشأ في ظلها التفكير البلاغي والنقدي إذ أضطر المعتزلة إلى تأويل كثير من الآيات التي يتنافى ظاهرها مع أصولهم العقائدية – خاصة مبدأ التوحيد – فحملوا النصوص على المجاز ، وأصبح هذا المظهر اللغوي الموضوعي دعامة لمبادئهم ما جعلهم يهتمون به ، ويفيضون في شرحه .

كانت البدايات الأولى للبحث في إعجاز القرآن، على يد أتباع فرقة المعتزلة التي صبت اهتمامها حول الآيات الموهمة للتشبيه التي يتعلق معظمها بالذات الإلهية والصفات التي خصت بالله عزه وجل في القرآن الكريم ، وفسر المعتزلة هذه الآيات تفسيرا مجازيا، مستدلين بكلام العرب ، ثم اتسعت دائرة البحث لتشمل النص القرآني عامة وعن مواطن الإعجاز فيه خاصة ، فنجد الجاحظ " ت 255 هـ " يبحث في أسلوب القرآن وعجيب نظمه، ويقف عند آياته مبينا وجوه الإعجاز وأسرار الروعة عن التعبير بالقياس إلى كلام العرب ، فتراه يقول : " في كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به "() , ثم يتقدم الزمن فنجد الخطابي " ت 388 هـ " يضع رسالته "بيان إعجاز القرآن" فيتحدث عن سر إعجاز القرآن فيقول : " فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزا ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني " ، فرسالة الخطابي محاولة لوضع نظرية نقدية محددا مقومات الكلام البليغ ومستوياته وكيفية نسج مكوناته، والثقافة المطلوبة لذلك، وطريقة التمييز والتفضيل بين بليغ القرآن وبليغ كلام الناس()

وعلى هذا الاساس عاد النص القرآني مرجعية ثقافية بالغة الاثر في رؤية النقد الادبي لدى العرب تعدت الحقبة الزمنية للقرن الرابع الهجري الى ما خلفته من عصور مثلما نجد هذا الاثر في استمرار مباحث الاعجاز القرآني عند الباقلاني , بل أنتجت هذه المرجعية منجزاً نقدياً كتابياً بالغ الاهمية في تراث النقد لدى العرب وهو نظرية النظم التي نظر لها الناقد الكبير عبد القاهر الجرجاني والتي جاءت أساسها البلاغية والنقدية مقترنه بالناشر الكبير لقضية الاعجاز في النص القرآني ودقة سبكه ونظمه الذي فاق ما فيه الشعر من قوة السبك وجمال التصوير والبيان يقول الجرجاني : (وذاك أنا أذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقران وظهرت وبانت وبهرت هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر , ومنتهياً الى غاية لا يطمح اليها بالفكر , وكان مجالاً أن يعرف كونه كذلك ألا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الادب ...)()

ثم نجد القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني " ت 402 هـ " يؤلف كتاب "إعجاز القران" ، وخصه دراسة البيان القرآني ومقومات إعجازه البلاغي، وهو مؤلف نقدي يبين أسرار نصوص الشعر والنثر في الجاهلية والإسلام ، ويتحدث فيه عن السر الذي أعجز العرب الفصحاء من معارضة القرآن والإتيان بمثله، فقال : " إن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، و إعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المغلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور "()

ومن خلال النص السابق للقاضي الباقلاني يمكن تحديد منهجه النقدي، فالذوق النقدي لا يتحقق إلا بعمق الخبرة وطول التمرس بفنون الكلام، وأن إدراك البلاغة واستجلاء إعجاز القرآن موقوفا على خاصية الذين هم أهله.

وكان الحديث الشريف ومصطلحه من المرجعيات الثقافية التي أثرت على النقاد وأثرت في نتاجهم النقدي ، لوصف أن الحديث جزء من ثقافة الأمة العربية والإسلامية ومن ثقافة مبدعيها شعراء وكتابا ، ومعرفة الناقد له تضيء له بعض الجوانب في النصوص التي يدرسها ، والمصادر التي استقى منها الأديب مادته الفنية ، ومن هنا كان الحديث حجة لاستعمالات بعض الشعراء , لا سيما أن أحاديث نبوية شريفة قد اقترنت بالحديث عن الشعر مثل قولة (ص واله) : (الشعر كلام فما وافق الخير فخذوه , وما وافق الشر فأنته عنه) وقوله الشريف (إن من البيان لسحر وأن من الشعر لحكمة) أو بالتلويح الى منزلة بعض الشعراء في ريادة هذا الفن والاثر الذي خلفه في الناس كما يشير الى ذلك حديثه الشريف عن أمرى القيس : (هذا رجلاً شريف في دنياه مذكور فيها , منسي في أخرها مذموم فيها يأتي يوم القيامة وفي يده لواء الشعراء الى النار يتدحرجون) إذ إن مثل هذه الاحاديث كانت من الحجج التي أعتمدها النقاد في بيان التفات النبي (ص واله) الى أهمية الشعر , وعدم نهيه إلا ما تقاطع مع الخير وقيم الفضيلة وعلى الرغم من أشارته الى الحال السلبية التي كان عليها سلوك أمرى القيس إلا أن الشطر الاول من حديثه قد أسهم في تعضيد أراء كثير من النقاد الذين فضلوا شعر أمرى القيس على غيره من الشعراء وعدوه مقصد من قصائد والمثل الاعلى الذي يتحذى بأساليبه وطريقته في النظم والموضوعات كما يظهر ذلك لدى ابن سلام الجمحي حينما وسبقه على راس الطبقة الاولى() , وفي أراء الجاحظ الذي قرن ظهور معالم النضج والاكتمال في بناء الشعر بشخص أمرى القيس , ولا يقتصر تأثر الناقد في المرحلة الكتابية للنقد لدى العرب بالقران والسنه فحسب , وإنما كان التأثير الروحي الاقوال صحابة رسول الله (ص , واله) وخلفائه مرجعية دينية أخرى رفدت قاموس النقد الادبي القديم وأصلت الكثير من القضايا فمصطلح (المفاضلة) الذي ورد في قول عمر ابن الخطاب (ر . ض) حينما فضل زهير ابن ابي سلما على غيره من الشعراء , والذي حد نقدياً لكونه يشير الى مصطلح الابطاء في القوافي() أو الى أيراد المتوعر من الالفاظ قد اضحى معياراً نقدياً راسخاً في منظور النقد يتردد كثيراً في مدونات النقد في القرن الثالث الهجري وما بعدها مثلما نلحظ ذلك لدى ابن سلام () , وفي العر والشعراء الابن قتيبة ولمقولة علي ابن ابي طالب عليه السلام في المفاضلة بين الشعراء وتفضيله الأمري القيس على غيره من الشعراء وما ورد فيها من حدود نقديه مهمه منها ما أتصل بوضع الاسس الموضوعية للمفاضلة بين الشعراء , ومنها ما اتصل بتعليل أسباب تفضيل أمرى القيس على غيره حينما أقرنها أمير المؤمنين (ع) باشتراط معيار الصدق الفني وابتكار المعاني والطبع الفني()

وهذا ما نلحظ عند الحاتمي " ت : 388 هـ " عندما تعرض للنقد لشعر أبي العتاهية إذ بان له أنه استقى ألفاظه من الحديث النبوي " اليد العليا خير من اليد السفلى " وذكر أنَّ أبا العتاهية أخذ بعض لفظ بيته وأخل ببعضه من هذا الحديث ، وبيت أبي العتاهية هو :

افرح بما تأتيه من طيبٍ * إن يد المعطي هي العليا ()

وكان لعلوم الفقه والعقائد أثر واضح في الفكر النقدي لدى العرب ، فقد عاش النقاد في البلاد الإسلامية التي تحكمها الشريعة الإسلامية ، والفقه والعقائد جزء أساسي من ثقافة هذه البلاد ، ولا شك أن الشعراء والنقاد كان معظمهم على دراية بتلك العلوم ، ومن هنا وجدنا العديد من القضايا العقائدية والفقهية مبثوثة داخل الكتب النقدية في تلك الحقبة ، وذلك مرجعه إلى تأثير تلك العلوم على الفكر النقدي العربي ، فكان علم أصول الفقه بمنزلة علم الكلام ، وقد استفاد منه بعض النقاد ، فأعطاهم قدرة على المحاكمة العقلية والمقايسة والموازنة على نحو ما نجده في وساطة القاضي الجرجاني وموازنة الآمدي()، وهكذا يعد القرآن والدراسات التي قامت حوله من العوامل الرئيسة التي ساعدت على انطلاق الدراسات النقدية الممنهجه ، وكانت الأبحاث التي أقيمت حوله خميرة صالحة لبروز التفكير النقدي المدرسي()

ثالثا: الموروث النقدي والأدبي :

كان الموروث النقدي والأدبي مصدراً مهماً من المصادر التي اعتمدها النقاد المتقدمون في رؤيتهم النقدية ، سواء أكان ذلك من خلال استفادتهم من الملاحظات النقدية التي نُقلت عن الحقبة الشفاهية إم من خلال الاستفادة من الأخبار التي رويت عن الشعراء ومزايا شعرهم وطريقتهم في الشعر ، ولذلك نجد اهتماماً مخصوصاً في حقبه النقد الكتابي بهذا الرافد المهم ؛ لأنه حدد في رؤيتهم النقدية تصوراً مخصوصاً عن الشعراء وقوة ملكتهم ، أو الملاحظات التي أُخذت إزاء شعرهم ، فضلاً عن تطوير القضايا النقدية التي اهتمت بها تلك الوقفات وتطويرها لتكون أصولاً نظرية راسخة في نظرية النقد ، كذلك في تطوير المصطلحات التي وردت فيها وجعلها حدودَ نظريةٍ مهمة في تقويم الأدب ، مثل ما طور الأصمعي مفهوم " الفحولة " مستفيداً من حكومة أم جندب حينما حكمت لعلقمة العبد فسُمي فحلاً () أو مثل ما طورت مصطلحات عدة عن الحقبة الشفاهية مثل المفاضلة والسناد والإقواء وغيرها ()

ولم يصرف الرواة ونقاد الشعر أثناء عملية تدوين الشعر العربي وتأصيله من الاهتمام بالجوانب الفنية له ، ومن ذلك أنهم لاحظوا إجادة ذي الرمة في التشبيه ، فقال حماد الراوية : " إن ذا الرمة أحسن الإسلاميين تشبيها " ولاحظ الأصمعي الشيء عينه عند أمرئ القيس والنابغة من الجاهليين ، وكان معيار الأصالة والمعاصرة والإبداع والجدة نصب أعينهم وهم يفضلون بين شاعر وآخر ، سواء أكان ذلك بدقة الوصف أو إصابته أو بحسن التشبيه أو

جدة المعنى أو جودة المطلع ، وعلى هذا اتفق معظمهم على أنَّ امرئ القيس أول من بكي واستبكى وقيد الأوابد ، ولاحظ الأصمعي أن النابغة الذبياني لا يحسن صفة الخيل ومثله زهير بن أبي سلمى ، في حين أن طفيل الغنوي غاية في النعت وهو فحل()، ولقد اهتم الكتاب والشعراء بنقد الشعر ودراسة البيان العربي ، وقد عُرفت هذه الفئة بحسن ذوقها وعلى رأسها الجاحظ فهو أول من تنبه ونبّه إليهم وأشاد بمكانتهم في التذوق الأدبي حين قال : " طلبتُ علمَ الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يُحسن إلا غريبه ، فرجعتُ إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتّاب ، كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات "()

والناظر في هذا النص يرى أن الجاحظ قد فضل الريادة في تقديم الحس النقدي عند هذه الفئة على غيرها من الفئات الأخرى ، وقد تابعه في حكمه هذا نقاد وكتاب آخرون منهم من عاصره مثل أحمد بن يحي المعروف بثعلب ، ومنهم من تلاه كالصاحب بن عباد ، وابن رشيق القيرواني ، الذي يرى أنَّهم من أرق الناس في الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيفا ، وأحلاهم ألفاظا ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم عل تصرف وأبعدهم عن التكلف()

ومن يقرأ كتبَ أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي وكتاب الموازنة للآمدي والموشح للمرزباني يرى أنها لم تخل من إشاراتهم النقدية ، فهؤلاء الأدباء كانوا يمارسون صناعة الأدب ، وينشئون النص ، وقد تميزوا عن علماء الأخبار والأنساب والرواة واللغويين كما قال الجاحظ بأنهم أصحاب قدرة على التعريف بأمر الشعر وفهم لغته . " ومن هنا نرى ما كان للشعراء والكتاب من أثر في النقد الأدبي ، إذ صبغوا بحوثهم ومؤلفاتهم بصبغة نقدية ، وساعدهم على ذلك ذوقهم الفني السليم "()

كانت هذه الفئة من النقاد والأدباء يضعون معايير سليمة لنقد الشعر ، فالأصالة والإبداع معياران لا يختلف عليهما اثنان ، ومثلهما دقة الوصف وجودة المطلع الذي ينبغي أن يكون مؤثرا ؛ لأنه أول ما يطرق السمع ومناسبا للغرض ومتين الصياغة ، وفي ضوء هذه المعايير كانوا يضعون الشعراء في مراتبهم التي يستحقونها ، فالأصمعي مثلا عندما جعل الفحولة معيارا تقاس به شاعرية الشاعر كان في حساباته أن يكون متنوع الأغراض ، قال في كل عروضٍ ، وركبَ كلَّ ناقة ، وأن يكون كثير الشعر جيده ؛ لأن كثرة الشعر دلالة الخصوبة والقوة . وقد ارتضى بعده ابن سلام هذه المعايير لتوزيع الشعراء على طبقات ، وقد حاول العلماء أن يضعوا النقد الأدبي على أسس وقواعد ، وهذا هو أول الطريق نحو المنهجية الكتابية التي ينبغي أن يأخذ بها الناقد نفسه ، لقد وضعوا اللبنات الأولى بقواعد نقد الشعر ، يتمثل هذا بتحديد الأغراض وبيان خصائصها العامة ، وبوضع المعايير السليمة لتمييز شاعر من آخر ، وبدارسة الشعر معنى ومبنى والقصيدة مطلعا وحسن تخلص ، وبعملهم هذا قدموا الكثير من المصطلحات النقدية التي وجَدت طريقها إلى الدرس النقدي لاحقا ، مثل مصطلح الفحولة وبعض مصطلحات السرقة مثل " الاستحقاق " والاجتلاب ، والانتحال ، والإغارة والغصب ، ولم تكن دلالة هذه المصطلحات واضحة بالطبع على نحو ما ينبغي

أن يكون عليه المصطلح ، لقد مارس علماء القرن الثاني للهجرة النقد اللغوي أشكالاً من النقد لم تكن واضحه المعالم من حيث المنهجية والموضوعية لكنها ، أفادت آراؤهم النقد الكتابي المدرسي كثيرا فيما بعد()

ومن خلال ملاحظات الشعراء والنقاد يتبين أن نقدهم – في الغالب – كان نقدا علميا ، مالوا فيه إلى ذكر المحاسن والمقابح ، وهنا تظهر العلمية الكتابية في النقد ، كما تظهر الأحكام البلاغية وتأثيرها في النقد ، والفضل في ذلك يرجع إلى وجود شعراء نقّاد متخصصين في النقد أمثال : ابن المعتز والبحتري وأبي تمام وغيرهم ، وبفضل هؤلاء الكتاب والشعراء استطعنا أنْ نلمَّ بأهم المقاييس النقدية الفنية التي اتخذوها في تقويمهم للشعر ، والتي أصبحت بفضل التطور التاريخي أسسا وقواعد للنقد الأدبي الممنهج()

رابعا: التأثير البلاغي:

من الروافد الأخرى التي أسهمت في تشكيل رؤية النقد الكتابي لدى العرب الاستفادة الكبيرة من حقل علم البلاغة وطريقته في فهم خواص اللغة الإبداعية والوسائل الفنية التي بُنيت على ضوئها في التعبير عن المعاني ونقلها بأساليب مؤثرة في المتلقي ، فضلا عن الاستفادة من الدرس البلاغي بشأن تقويم نصوص الأدب استحساناً ، وتوظيف المصطلحات التي وُصف بها الأسلوب البليغ لقضية الفظاً والمعنى في النظر النقدي ، وفي الأحكام المقومة تطبيقياً لنصوص الأدب على تنوعها ، وقد نجد هيمنة كبرى للدرس البلاغي في توجيه نظر الناقد وتطبيقاته ، سواءً كان المرجع البلاغي أصلاً رئيسياً آخر أسهم بشكل فاعل في تمييز الحقبة الكتابية والإسهام في تشكيل الأصول النظرية لنظرية النقد الكتابي لدى العرب ، من خلال إنتاج قضايا نقدية حملت هذا الطابع بشكل واضح ، مثل ما نجد ذلك في إنتاج قضية اللفظ والمعنى ، ابتداء من صحيفة بشر بن المعتمر المعتزلي التي حملت مضامين بلاغية واسعة مثل : شروط الفصاحة والحديث عن أهميه البيان والبديع في الشعر والنثر()

إنَّ أصول النقد والبلاغة تشهد بامتزاجهما في طور النشأة والتكوين، بل تؤكد على وحدة هدفهما واشتراكهما في نقطة الانطلاق ومساحة العمل، وهذا الامتزاج جعل من العسير الفصل بينهما في مرحلة البدايات، فقد تداخلت المباحث البلاغية والنقدية تداخلاً يصعب معه وضع الفواصل والحدود بما يميز كل علم عن الآخر قبل مرحلة التقعيد، " ولعل من أسباب ذلك أن النقد لم يظهر عند ظهوره علمًا مستقلاً بنفسه، ولم تظهر البلاغة عند ظهورها علمًا مستقلاً بنفسه، وذلك يعود إلى طبيعة التأليف في العلوم في المرحلة الأولى التي تم فيها تثبيت المعالم الأولية لكل علم ، فكان النقد نقدًا بلاغيًا، والبلاغة بلاغة نقدية ، بمعنى اعتماد النقد على مقولات البلاغة، واعتماد البلاغة على الحس النقدي؛ لذا كان النقد العربي القديم، في غالبه نقدًا بلاغيًا()

إن الباعث البلاغي من العوامل التي ساعدت على نشوء النقد الأدبي ، وعمل على ازدهاره ، فقد عاش النقد والبلاغة مختلطين منذ أقدم عصورهما ؛ لاتفاقهما في الغرض وهو : " تحقيق القوة والصدق والجمال في الأداء

والتعبير الأدبي ، فموضوع هذين الفنين وهدفهما واحد ، والحقيقة أنَّ البلاغة ملازمة للنقد ، وهو ملازم لها ، يؤكد هذا أن " المتقدمين يشيرون إلى تسمية علم البلاغة وتوابعها بعلم " نقد الشعر " و " صنعة الشعر " و " نقد الكلام "()

وكما برزت آثار النحويين واللغويين في بواعث نشوء النقد الأدبي عند العرب ، برزت آثار البلاغيين ، فكانت لآرائهم ثمرات من الأحكام الذوقية ، تساندها المعرفة بطبيعة الفن الشعري ، وما يعرف من عيوب فنية له : كعيوب في الاستعارات والكنايات وفي فن البديع عامة ، وفي جوانب أخرى ادخلوها في علمي البيان والبديع ، وذكروا فيها عيوبا ، كما ذكروا في غيرها ، ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أحكام البلاغة هي أحكام صادرة عن الذوق كما قال ابن خلدون : " حصول ملكة البلاغة للسان "() ويؤكد هذا القول ابن الأثير في كتابه المثل السائر حيث قال : " واعلم – أيها الناظر في كتابي – أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذي هو أنفع من ذوق التعليم "()

فالحكم البلاغي إذن حكم مبني في شطر منه على الذوق ، فهو حكم تأثري إذن ، والتأثر نازع نفسي يخضع للذوق وأحكامه ، والذوق ليس غير " انعكاس الفن على نفوس المتلقين له ، والمقبلين عليه "() وإذا كانت الأحكام البلاغية " تعتمد على الذوق ومعرفة عيوب الكلام ، فهي إذن أحكام تأثيرية ذوقية تتخذ من تعليل الأحكام الصادرة عنها أداة لها ، وبالتالي يبعد الأحكام الفنية عن الأهواء ويحفظها من الاسترسال وجموح العواطف "().

لقد أسهم البلاغيون في تشكيل الذوق الأدبي عند العرب بصفة عامة ، وسرى مفعول تأثيرهم إلى عصورٍ متأخرة ، وذلك من خلال ضرورة نسج الشعر على منهج القدماء انطلاقا من تحديدهم للفصاحة والتفوق ، وربط ذلك جغرافيا بالقبائل التي لم تداخل لغتها العجمة والفساد ،() وكان في حديثهم عن التشبيه ، بوصفها قسما من أقسام الصورة الفنية في تاريخ البلاغة والنقد ، ولا شك أن اللغويين والبلاغيين لم يختلقوا ذلك اختلاقا ، فلقد كان ذلك لأسباب تعود إلى طبيعة نشأة المستوى الفني في اللغة ، ولكون التشبيه أولى درجات ذلك المستوى ، غالبا على شعر القدامى ما جعله يلفت انتباه هؤلاء العلماء ، وعلى أساسه أقاموا معظم تصورهم للفن الشعري ، بل أقاموا على أساسه تعريفهم للشعر . () "ومن هنا كان التشبيه من الوجوه البلاغية الأولى التي وقع ضبطها وتحديد أقسامها ووظائفها ، وتحديد الجيد منه والرديء " . () ومن يتصفح كتاب الأغاني يرى أن بعض السامعين للشعراء كانوا يتعرضون للشعراء وهم ينشدون فيبدون ملاحظاتهم البيانية ، ومن هذا ما رُوي أن ذي الرمة أنشد في سوق بكناسة الكوفة قصيدته التي يقول فيها :

إذا غيَّر النأيُ المحبينَ لم يكدْ * رسيسُ الهوى من حُبِّ ميّة يَبرحُ

فقال ابن شبرمة : أراه قد برح ، فكأن المتلقي لم يستسغ من ذي الرمة " لم يكد " مما جعل ذي الرمة يعاود بتغير بيته بقوله " لم أجد " بدلا من " لم يكد () وتحدث ابن قتيبة عن البيان حينما أورد حديثا لثمامة عندما قال لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ قال : " أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويحلّي عن مغزاك ، وتخرجه عن الشراكة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذي لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيد من الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأويل ".() وأخبار الشعراء ومحاوراتهم دلالة واضحة على اهتمامهم بدراسة وجوه البيان والبلاغة ، فما رواه الأصفهاني في كتابه الأغاني ، وما رواه ابن قتيبة في " الشعر والشعراء " وما رواه غيرهم في كتب الأدب ، يدل على أن الشعراء كانوا كلما ضمهم مجلس أخذوا يتناشدون ويتجادلون ويتحاورون ، ويستخرجون لبعضهم الأخطاء ، ويبدون الملاحظات في الألفاظ وغرابتها ، وفي المعاني وفساده . () فنجد القاضي عبد العزيز الجرجاني يعلق على أبيات أبي تمام الغزلية بالحسن التي قال فيها :

دعني وشربَ الهوى يا شاربَ الكاسِ * فإنَّني للذي حسّيته حاسي

لا يوحشنَّك ما استعجمتَ من سقمي * فإنَّ منزلهُ مِن أحسنِ الناسِ

فعلق فقال : فلم يخلُ بيتٌ منها من معنى بديع ، وصنعة لطيفة ، طابق وجانس ، واستعار فأحسن ، وهي معدودة في المختار من غزله وحقَّ لها "() وظلت الملاحظات البيانية والبلاغية تسجل في ثنايا الكتب ، كما رأينا عند الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وثعلب وغيرهم ، ومع الزمن تطورت هذه إلى دراسات منهجية كانت عماد الدراسات النقدية المدرسية ، فمن الدراسات المنهجية كتاب البديع لابن المعتز ، وكتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، ورسالة النكت في إعجاز القرآن للرماني " ت 386 هـ " وكتاب إعجاز القرآن للباقلاني " ت 403هـ " ، كما وجدت دراسات اهتمت بدراسة صناعة الشعر والنثر " كالصناعتين " للعسكري ، وكتاب العمدة في صناعة الشعر والنثر لابن رشيق القيرواني ، وهؤلاء فتحوا الباب واسعا لمن جاء بعدهم ليؤلف على نهجهم وطريقتهم ، كما فعل ابن سنان الخفاجي " ت : 466 هـ " في كتابه سر الفصاحة ، الذي درس فيه فصاحة الكلام درسا منهجيا دقيقا ، وعالج فيه فنون البلاغة والبديع ، في ثنايا حديثه عن سر الفصاحة . ومن هنا يتبين أن للأثر البلاغي تأثير كبير في بواعث النقد الأدبي الكتابي ، ولا يقل أهمية عن التأثير اللغوي والنحوي والأدبي()

خامسا : التأثير الفلسفي :

ولم يكن النقد الفلسفي بعيداً عن التدخل في صياغة خطاب التراث النقدي لدى العرب ابتداء من القرن الثالث الهجري وما خلفه من عصور ، لاسيما أن روافد هذا التأثير قد كانت غزيرة ؛ بسبب النمو المعرفي المفصل في الوعي الثقافي لدى العرب في تلك الحقبة بسبب الانفتاح على الثقافات ومعارف الأمم الأخرى مثل : اليونان والفرس والهنود عن طريق الترجمة (), ومن خلال توسع النظر في ميدان الفلسفة وعلم الكلام والمنطق , ولكون

بعض النقاد قد اختصَّ بأكثر من حقل معرفي في التأليف والكتابة وسعة الاطلاع ، إذ كان الاتصال بحقل الفلسفة اتصالاً وثيقاً منذ القدم ، لا سيما أن مثل هذه الحالة متحصلة لدى فيلسوف ناقد مثل أرسطو الذي تضمن كتابه " فن الشعر " التقاء معرفياً بين ميداني النقد والفلسفة ، ولكون هذا الكتاب من أقدم المدونات الكتابية في النقد ؛ لذا فقط استهوى نظر النقاد العرب والمسلمين فاستزادوا من الآراء والأصول الأرسطية وروجوا قضايا ومفاهيم جديدة لم يتطرق لها المتقدمون من قبلهم ، وتحقق ذلك من خلال قضية المحاكاة ومفهوم اللذة الفنية فضلاً عن التأثر بالخطاب الأرسطي من حيث السعي إلى وضع الحدود النظرية واعتماد الحجاج والاستدلال النظري من تقعيد قضايا النقد وتعريف المصطلحات وبسطها أو ابتكارها () ، وكان النقد العربي إلى أوائل القرن الثالث يتسم بالذوقية على طريقة النقاد العرب الخلص، ثم أخذ بعد ذلك يتجه نحو التأصيل والتقعيد المدرسي ؛ نتيجة تأثيرات الثقافات الفلسفية الهندية والفارسية اليونانية التي شاعت عن طريق الترجمة ، فالجاحظ قد تأثر بالمنطق في نظره إلى البيان على أنه نوع من الدلالة، وقدامة في كتاب " نقد الشعر" تأثر بالفكر اليوناني تأثرا قويا ظاهرا، فلم يعد يعنى بما كان يعنى به الآمدي والجرجاني من السرقات الأدبية ، وإن كان الآمدي يجمع في نقده بين التيار العربي الخالص والآثار اليونانية، واهتم عبد القاهر الجرجاني في كتابيه " أسرار البلاغة " و" دلائل الإعجاز" بفكرة " النظم" التي يربط فيها بين مفردات الجملة وهي فكرة شبيهة بفكرة " الوحدة" التي وردت عند أرسطو في كلامه عن التراجيديا ، ومن هنا رأى الدكتور– شكري عياد – أن المسائل التي ظفرت باهتمام النقد لا بد أن تكون ذات صلة قوية بكتاب " الشعر" لأرسطو بصفة خاصة، وبالمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية بصفة عامة()

وعندما لخص كلٌّ من الفارابي " ت : 339 هـ " وابن سينا " ت : 428 هـ " كتاب الشعر لأرسطو ، تداولته يد الفلاسفة لمدة ثلاثة قرون ، وعد مصدراً من مصادر الجمال ، ولذا قالت سهير القلماوي : " يكفي أرسطو أنه أوجد الأسس الأولى للتفكير في مسألة الخيال "() , ومن مظاهر وقوف العلماء والنقاد العرب على آثار اليونان ومناهجهم واتجاهاتهم وخاصة في مجال النقد الأدبي ما قام به ابن سينا في تعريف الشعر إذ يقول : " نحن نقول إنَّ الشعر هو كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة "()

وهنا يظهر الأثر الأرسطي على ابن سينا في مخالفة تعريف العرب للشعر على : أنه كلام موزون مقفى ، فقد أضاف سمة الخيال التي ظل أرسطو يحاول إلصاقها بالشاعر على أنه يدخل في حالة شعورية غير واعية ، وأنه يمر من خلال هذه الدوامة إلى ما وراء الطبيعة على حد قوله : " الناس أطوع للتخيل منهم للتصديق ، وكثير منهم إذا سمع التصديقات هرب منها واستكرهها ، لأن التخيل إذعان للتعجب والتلذذ أما التصديق إذعان لقبول الشيء على ما قيل فيه "() .

لقد استعان علماء الإسلام بالمنطق اليوناني " لمحاربة الأفكار القائمة على النظر في المنطق والفلسفة وعلى مذاهب الخلاص"() ومن هنا نجد المعتزلة يواجهون ما تراكم لدى الشعوب من عقائد فكان عليهم أن يدرسوا تراث الآخرين ، وأن يتسلحوا بالجدل في مواجهة المد الشعوبي وما يخالف العقيدة الإسلامية .

وإلى جانب اهتمام المعتزلة بالذود عن الدين اعتنوا بفن الخطابة عمليا ونظريا ، وكان هدفهم إقناع المستمعين فأغنوا الأدب العربي بنثرهم ودراساتهم البلاغية والنقدية والكلامية ، معتمدين على المنهج العقلي ، مستفدين من جدلهم مع " أصحاب الملل وخاصة نصارى السريان الذي يتأثرون في عمق بالثقافة اليونانية ، والذين كانوا يعرفون كتابي الخطابة والشعر لأرسطو "() , الأمر الذي يدل على تعمقهم في الفلسفة والمنطق واهتمامهم بالبلاغة للتمكن من البراعة في الكلام بما يجعلهم شبيهين بالسفسطائيين من حيث الاعتماد على قوة الجدل والتلاعب بالكلمات ، لذلك فأنهم يستطيعون البرهنة على الشيء وضده في آن واحد() مثلما كان يفعل ابن سيار النظام " ت : 231 هـ " أستاذ الجاحظ ، وأحد رؤساء هذه حركة المعتزلة ، والذي كان له شعر دقيق المعاني استقاه من الجدل والكلام ، إضافة إلى اهتمامه بالنقد ، ولقد " بلغ من اهتمامه في دراسة الفلسفة والمنطق أنه كان قد تتبع كتابات أرسطو "() وعنه أخذ الجاحظ الذي قال : " ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة () فالعالم هو الذي يجمعهما .

والجاحظ أشار أكثر من مرة في مواطن مختلفة إلى مصادره الأجنبية التي ترجمت في وقت مبكر من عصره ، فتراه يشير إلى كتاب المنطق لأرسطو مقررا أن أكثره يستعصى على إفهام الخطباء والبلغاء ؛ لأن تمثله يحتاج : " إلى أن يكون السامع عرف جهة الأمر وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام "() كما أشار إلى أن لليونانيين " فلسفة وصناعة منطق ، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس "() , وإبراهيم بن المدبر " ت : 279 هـ " أورد تعريفا للبلاغة منسوبا إلى أرسطو وهو قوله : " البلاغة حسن الاستعارة "()

وتبدأ قدم المتأثرين بالتيار الفلسفي في الثبات والرسوخ ممثلة في " قدامة بن جعفر " " ت 337 هـ " وهو من المعاصرين لابن المعتز ، وقد أفاد قدامة مما كتبه ابن المعتز ، إلا أن منهجه الفلسفي يبعد به عن سيولة العرض والروح الأدبية التي نجدها عند ابن المعتز حيث تطغى التأثيرات الفلسفية في التقسيم والتفريع ومحاولة منطقة كل شيء ؛ مما أدى إلى ما يمكن أن نسيمه تغريب البلاغة العربية ، وفي ذلك يقول جوستاف جفر : " قد حاول قدامة أن يطبق الدراسات البلاغية التي كتبها الإغريق على الشعر العربي ، وكانت هي المحاولة الأولى والأخيرة من هذا النوع الذي كتب لها سوى الإخفاق التام "()

وفي كتاب قدامة نرى الأثر الأرسطي في حديثه عن الجنس والحد وغيرهما كقوله مثلا : " لما كان هذا الحد مأخوذا من جنس الشعر العام له وفصوله التي تحده عن غيره كانت معاني هذا الجنس والفصول موجودة فيه كما يوجد في كل محدود معاني حده "()

ويتحدث قدامة بن جعفر عن قضية اللفظ الجيد فيرى : " أن يكون سمحا ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، وعليه رونق من الفصاحة الخالية من البشاعة " ومثل بقول كثير :

ولما قضينا من منى كلَّ حاجة * ومسح بالأركان من هو ماسحٌ

أخذنا بأطراف الحديث بيننا * وسالت بأعناقِ المطي الأباطح()

ومثل هذا الكلام نجده في كتاب " نقد الشعر " لأرسطو عند حديثه عن اللغة الشعرية إذ يقول : " جودة اللغة تكون في وضوحها ، وعدم تبذلها ".() فنجد أن أرسطو قد أعطى شروطا للغة الشعرية وكيفية اتصافها بالبساطة والوضوح واحتواء اللفظ للمعنى ، أي تطابق الدال مع المدلول .

ومن خلال ما سبق من الآراء يتضح مدى تأثير الثقافة اليونانية على قدامة ، ومدى فطنته في تعامله مع هذه الثقافة في بلورتها إلى الطابع النقدي العربي ، وخدمته بواسطة هذه الثقافة للنقد العربي المنهجي كما كتب معاصر قدامة " إسحق بن وهب " كتاب البرهان في وجوه البيان " ونرى فيه التأثر بمنطق أرسطو ، وعلى وجه الخصوص في مبحثيه " المنطق والجدل " () ، واختلفت وجهات الدارسين حول التأثير الفلسفي في النقد العربي عندما أشاع الدكتور – طه حسين – أن " البيان العربي خرج من حبه لأرسطو ".() ، فالدكتور – طه حسين – " يرى أن النقد العربي استمد أصوله من النقد اليوناني " ،() وأمين الخولي انتهى إلى أن " تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام كان قويا بعيد المدى " سواء من ناحية النشأة أو من ناحية التطور ، وأن ما جاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ إنما هو كلام فلسفي محض مقارنة بمعاني أرسطو ، خاصة في كتاب الخطابة " ()، وذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن " التأثير بدأ مع المعتزلة وأن الجاحظ أقام رسالة " التربيع والتدوير " على فكرة الأواسط التي استعارها من النظرية الخلقية اليونانية ()

أما عبد المجيد ناجي فقارن بين المجازات التي تعرض لها ابن قتيبة وبين ما جاء عند أرسطو، بغرض إثبات التأثير، لكنه لم يجزم في كلامه؛ لأنه وجد أن ما جاء به ابن قتيبة كان معروفا عند الفراء وأبي عبيدة. ()

بينما يرى أحمد المطلوب أن النقد العربي والبلاغة قد عرفهما العرب قبل ترجمة كتابي الشعر والخطابة لأرسطو ، وأن تيار التأثر " من أضعف التيارات ظهورا في مجال التطبيق "() ويتفق معه إبراهيم أحمد طه إذ يرى أن النقد العربي نشأ نشأة عربية منذ العصر الجاهلي ، وأنه تطور " واستقر في عهد الطبقات الأولى من اللغويين ، وعرفت له مقاييس وأصول " () وأن البداية الصحيحة للنقد العربي كانت في أواخر القرن الأول الهجري ، حين كثر الخوض فيه ، وتعمق الناس في فهم الأدب ووازنوا بين الشعراء ، وأن ممن تأثر بالثقافة اليونانية : قدامة بن جعفر ، " الذي كانت ذهنية أجنبية محضة ، لا تمت بسبب إلى القديم ولا تركن إلى أصل من أصوله ، وإنما تستمد كل شيء من اليونان ، وتجتلب له الشواهد اجتلابا عنيفا من الأدب العربي"()

وسعى عباس أرحيلة إلى إثبات أن الحضارة العربية الإسلامية استمدت هويتها من القرآن والسنة وأن :" الذوق العربي قد تربى في أحضان القصيدة العربية ، وتحددت قسمات النقد العربي قبل معرفة أرسطو ". () ولم ينكر تلخيص الكندي لكتاب فن الشعر ، لكنه لم تكن له أصداء في مكتبة الثقافة العربية ، وهو بذلك يريد الرد على أمين الخولي الذي يريد أن يربط – قسرا – ترجمة كتاب أرسطو بنشأة البلاغة العربية()

لقد كان الاتجاه الفلسفي محاولة لتطبيق الفكر اليوناني الفلسفي المنطق على العقيدة والعلوم الدينية والبلاغية والنقدية ، " وهو انعكاس لروح غير عربية سطيرت على أفكار بعض العلماء في تلك الفترة من تاريخ الحركة الكتابية النقدية في ذلك الوقت ، وتجلت في هذا الاتجاه النزعة إلى عدم الاهتمام بالنصوص العربية نتيجة لتلك التحولات التي راحت تتجه نحو النزعات التي تهتم بالفكر والمنطق الأرسطو()

ونستنتج مما سبق أن ما يشكل موضوع الخلاف لدى أغلب النقاد والدارسين ليس مسألة التأثر في الثقافة العربية بل نطاقه ومجالاته ، فالتأثير كان واضحا في العلوم الطبيعية كالطب والنجوم والرياضيات ؛ لأن العرب لم تكن لديهم هذه العلوم قبل مرحلة الترجمة ، وأنها وردت إليهم من ترجمات الفرس والهنود واليونان ، وإنما كان مدار اختلاف الدارسين حول نشأة العلوم اللغوية بما فيها النقد العربي القديم ، ففريق يرى: أنه تطور في العصر الجاهلي وأن العرب عرفوا النقد من التلازم المفترض بينه وبين الشعر ، فيرفض مس استقلالية نشأته ، وكذلك الأمر بالنسبة للنحو والبلاغة في أهم مفهوم فيها وهو المجاز ، أما فيما يخص مراحل تطورها فقليل من ينكر ذلك ، أما الذين تشبعوا بالثقافة الغربية فعالجوا التراث من خلال المفاهيم التي تشبعوا بها وآمن أغلبهم بالتأثر المبكر في البلاغة والنقد.()

وبناءً على ما تقدم فقد ان عصر الكتابية الذي شهده تاريخ النقد الادبي عند العرب منذ بداية القرن الثالث الهجري نقطة تحول الكبرى من طور النقد الذوقية الى طور النقد المنهجي المدرسي الذي أزدحم فيه خطابه أبعاد

متنوعة من المرجعيات الثقافية بفعل المثاقفة المتخصصة في ميدان العلوم وبفضل الحوار الحضاري مع الثقافات الاخرى التي جعلت التفكير النقد في تلك الحقبة غير منكمش على البعد التراثي في النقد , فإنتاجات النقد المدونة كانت تصور حاله من رؤية الناقد للعالم وبشكل تواصلي معتمد على التبادل الايجابي مع الاخر غير العربي , ما اسهم ذلك اسهاماً فاعلاً في تطور المعرفة العربية من جهة , وزيادة التخصص والانتاج في نتاجاتها العلمية والفكرية والتي منها مدونات النقد , فلم تعد البيئة العربية وموروثها المتنوع هو الرافد الوحيد الذي يتجلى في منظور النقد وانما بداءة مرجعيات اخرى تزدحم في تفكير الناقد ووعيه أبان تقويم نتاجات الادب , وهذا ما يفسر التحول الكبير من النقد الجماهيري الى النقد المدرسي الذي بداء يتبع اصول وقواعد ومفاهيم علمية محضه في تفسير الابداع الادبي وبيان مكوناته واصدار الاحكام المقننة التي تنتهج الاصول المكتوبة بديلاً عن الاحكام التلقائية التي تقتضيها المناسبات الادبية والتي تحتكم بالدرجة الاساس على ما لدى الناقد من ملكة موهوبة وإحساس مرهف وخبره قد تكون على قدر كبير من التخصص أو بخلاف ذلك.

نتائج البحث

بعد البحث في ترصد المرجعيات الثقافية في الوعي النقدي لدى العرب القرنيين الثالث والرابع الهجريين , تمخضت جملة من النتائج التي يمكن إيجازها بالآتي :

1- كان التنوع الثقافي سمة بارزة في خطاب النقد المدون وملمحاً عاكسا لشخصية الناقد الفذ في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ويمكن بوساطته تبين معالم تحول النقد من الشفاهية إلى الكتابية مقرونة بالظاهرة الثقافية وتحولاتها.

2- النقد اللغوي أول ما عرفته العربية من النقد العلمي القائم على التعليل وذكر الأسباب وقد كان هذا الرافد المعرفي مرجعية رئيسة في الوعي النقدي في هذه الحقبة .

3- أخضع النقاد القدماء النص الذي نقدوه إلى سلطة الانموذج الذي تمثل في أشعار المتقدمين، وعدوا كل ما خرج عنه مرفوضا بسبب مخالفته التقليد الشعري المتعارف عليه قبل القرنين الثالث والرابع الهجريين.

4- القضايا العقائدية والفقهية مبثوثة داخل الكتب النقدية في تلك الحقبة، وهذا مرجعه إلى تأثير تلك العلوم على الفكر النقدي العربي، إذ كان علم أصول الفقه بمنزلة علم الكلام، وقد استفاد منه بعض النقاد ليمنحهم قدرة على المحاكمة العقلية والمقايسة والموازنة على نحو ما نجده في وساطة القاضي الجرجاني وموازنة الآمدي , وهذا ما منح الركن المعرفي تأثيراً مرجعياً في وعي النقد .

5- كانت المرجعيات البلاغية رافداً مهماً في وعي النقد لكونه يمثل صوره مثلى لتحول النقد من شفاهية إلى مستواه الكتابي الذي اقترن بنزعة التأليف والاستفادة من العلوم وعلى رأسها البلاغة العربية وقد أسهم البلاغيون في تشكيل الذوق الأدبي عند العرب بصفة عامة، وسرى مفعول تأثيرهم إلى عصورٍ متأخرة، وذلك من خلال ضرورة نسج الشعر على منهج القدماء انطلاقا من تحديدهم للفصاحة والتفوق، وربط ذلك جغرافيا بالقبائل التي لم تداخل لغتها العجمة والفساد.

6- وضوح الصلة الوثيقة ما بين ميدان الفلسفة والنقد الادبي لدى العرب , إذ مثلت الفلسفة نقداً ثقافياً مهماً في توجيه وعي النقد خصوصاً في حقبته الكتابية من خلال الآراء التي قدمها الفلاسفة المسلمون في ميدان النقد من خلال تروجيهم لكثير من الاطروحات الفلسفية الارسطو ضمن مفهومي المحاكاة وللذة الفنية ناهيك عن تأثير النقاد بهذه المرجعية في اتسام منهجهم بالسمة العقلية واعتماد الرؤية المنطقية في تأليف وتقعيد القضايا النقدية ووضع الحدود لمصطلحاتها كما يلمس هذا التوجيه جلياً لدى ابن طباطبا وقدامة بن جعفر .

7- يعد عصر الكتابية الذي شهده تاريخ النقد الادبي عند العرب منذ بداية القرن الثالث الهجري نقطة تحول كبرى من طور النقد الذوقية الى طور النقد المنهجي المدرسي الذي أزدحم فيه خطاب الأبعاد المتنوعة من المرجعيات الثقافية بفعل المثاقفة المتخصصة في ميدان العلوم وبفضل الحوار الحضاري مع الثقافات الاخرى التي جعلت التفكير النقدي في تلك الحقبة غير مقتصر على البعد التراثي في النقد، فالنتاجات النقد المدونة كانت تصور حاله من رؤية الناقد للعالم وبشكل تواصلي معتمد على التبادل الايجابي مع الاخر غير العربي.

وبعد، فإن هذا البحث يأمل ان يكون قد توصل الى نتائج مفيدة، وألا يحرم أجر المجتهد المخطئ، إن لم يحقق الإصابة التي ينشدها، كما قال رسول الله (ص): "المجتهد إذا أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر". والله الموفق وعليه قصد السبيل.

الهوامش